رحلـة الأدب العـربي الى أوربـا

تاليف : محمد مفيد الشوباشي

دار المعـارف بمصـر 1968
260 صفحة .

تقديم : محمـــود طرشـونـة

ما فتـىء موضوع الصلة بين الأدب العربـي والأدب الغربـي في القرون الوسطى يثير اهتمام الدارسين المستشرقين والعرب منذ اتضح تأثر الشعـراء التروبـــادور (Troubadours) بالموشحـــات والأزجـال الأندلسيـــة (1) ، وتـــأثّر دانتـي (Dante) بالثقـــافة الإسلامية (2) . وظهر بين المستشرقين

(1) *Nykl. A.R.* « L'influence arabe andalouse sur les troubadours « *Bulletin hispanique*, 41, 1939

Henri Perès « La poésie arabe d'Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des troubadours » l'Islam et l'Occident *Cahiers du Sud*, 1947, pp. 107-130

Lévi-Provençal « Poésie arabe d'Espagne et poésie d'Europe médiévale » *Islam d'Occident. Paris* 1948 *pp.* 283-304

G. Gomez « La poésie hyrique hispano arabe et l'apparition de la hyrique romane » *Arabica* 1958 *pp.* 113-144

Lemay « A propos de l'origine arabe des troubadours » Annales. Economie. Sociologie *Civilisation Fasc.* 5 1966

(2) *Miguel Asin Palacios* « La escatologia musulmana en la Divina Comedia » *Madrid* 1919. 2e *éd.* 1943. *Trad. française Paris* 1924

شقان : شقّ منصف يثبت فضل الأدب العربـي بكل تجرّد ، وشق متعصب لأوربا يسعى إلى التنقيص من قيمة هذا الفضل . أمّا الباحثون العرب فقد تبنوا نتائج دراسات المنصفين وتحاملوا على منكري فضل العرب على الغرب .

وكتاب محمد مفيد الشوباشي « رحلة الأدب العربـي إلى أوربا » يندرج في هذا التيار المتحامل لما اتصف به من عنف في اللهجة ، وتسرّع في الأحكام ، وعقم في منهج البحث . وقد رأينا من المفيد التنبيه إلى بعض الأخطاء المنهجية حتـى لا تتسرّب انعكاساتها إلى طرقنا في البحث .

اعتزم المؤلف تقسيم كتابه إلى بابين متعادلين من حيث عدد الصفحات بقطع النظر عن محتوى كل باب . فجعل موضوع الباب الأوّل « تنقّل الثقافات عبر القرون وتزاوجها وتوالدها » وجعل موضوع الباب الثانـي « خصائص الأدبين العربـي والأوربـي » ولمّا كان الكتاب خاليا من جميع أنواع الفهارس — بما في ذلك فهرس المواضيع — فإن الناظر في هذيـن العنوانين يظن أن المؤلف خصص الباب الأوّل لقسم نظري عام والباب الثانـي لقسم تطبيقـي خاص بتأثير الأدب العربـي في الأدب الأوربـي . الاّ أن مجرّد النظر في العناوين الفرعية لكل باب يفاجـيء القارىء بمواضيع غير متوقعة . فقد قسّم المؤلف الباب الأوّل إلى ستة فصول تحمل العناوين التالية : « تطور الأدب والفـن » ، « العلـم وتطـور الأدب » ، « عوامل التطـور المحلية » (3) ، « الأثر المتبادل بين اللغة والأدب » ، « العوامل الخارجيـة لتطوّر الأدب » ، « الأدب العربـي في أوربا » . فإذا استثنينا الفصل الأخير لاحظنا أن الفصول الخمسة الأولى ليست لها أية علاقة بموضوع الكتاب . فهـي مقالات صحفية من صنف ما ينشر في بعض المجلات لترويج اراء مبتذلة لا تفيد البحث ولا الأدب . فالفصل الأوّل مثلا قد خصصه المؤلف

(3) ينقسم هذا الفصل بدوره إلى ثلاثة فروع « الأثر المتبادل بين الفنان ومجتمعه » « أثر المجتمع في تطور الأدب والفن » ، « أثر الفرد في تطور المجتمع »

لمناقشة إعجاب « هيجل » (Hegel) بالثقافة اليونـانية ، ولأدلـة تثبت التقدّم الحضاري المطّرد ، وللتهجم على الرأسمالية « لأن الصراع الطبقـي – في نظر الكاتب – هو المحرّك الأساسي للمجتمعات » (ص 17) ، ثم شعر أنه لم يشرع بعدُ في طرق الموضوع فنبّه القارىء – ولعلّه ينبّه نفسه ! – بقوله : « وقد يسأل سائل ما صلة الاراء المتقدّمة بموضوع هذا الكتاب ؟ » فيجيب بأن « البحوث أثبتت تأثّر الفكر الغربـي بالثقافة العربية ، ومن الطبيعـي أن تقابل هذه البحوث بالسخط من جانب مفكّري العالم الرأسمالي » (ص 18) .

لهذا السبب عاد ثانية إلى التهجم على هذا النظام الاقتصادي في الفصل الثانـي الذي اعتزم تخصيصه « لمناقشة منكري الصلة بين التقدم العلمـي والتقدم الأدبـي » (ص 21) . فتحدّث في هذا الفصل عن كل شيء الاّ عن الموضوع الذي حدّده لنفسه . فقد عرض نظريـة « درويـن » (Darwin) في النشوء والارتقاء ، ثم لخص كتاب « صلة الأدب بالعلم » لألدوس هاكسلي (A. Huxley) ، ثم عـاد ثانيـة إلى رأي « هيجل » في الثقـافة اليونـانية وقابلـه بـرأي « كانت » (Kant) في الأدب والفن ثم ذكر تعريفـًا للفن ، ثم أثبت تأثر العلم والأدب كل منهما بالاخر ، فعرض آراء فلاسفة القرن الثامن عشر « العقليين » وفلاسفة القرن التاسع عشر « الواقعيين » في الموضوع . ثم وصل إلى هذا التصريح المتفائل : « غير أن النظام السياسـي الجائر الذي خلق تلك الأزمة يوشك أن ينهار ، ويخلي السبيل للإشتراكية التـي تتوخـى القضاء على استغلال الإنسان للإنسان وإحلال العدالة الإجتماعية محلّ الجور والطغيان » (ص 30) وختم الفصل بفضل العلم والـردّ على روسو(Rousseau) وطاغور (Tagore) !

وعلى هذا النسق « ينتظم » في بقية الفصول استعراض لمعـارف المؤلّف في مختلف المواضيع وسَرْدٌ لكل ما تعلّمه من مطالعاته . فتجد اراء « سانت بوف » (Sainte-Beuve) و« تان » (Taine) في النقد ، كما تجد شيئا من

تـاريخ مصر القديمة ، وتجد تلخيصا لمؤلفات روسو ومسرحيات « بومارشـي » (Beaumarchais) وقصص بلـزاك (Balzac) وتـولستوي (Tolstoï) ودوستويفسكي (Dostoïevsky) (الفصل الثالث) كما تجد نقاشا حول الفصحى والعـامية (الفصل الرابع) ، وتجد أثر غزو نابليـون (Napoléon) لمصر ، كما تجد تعريفا للأدب المقـارن (الفصل الخامس) . وتنتهـي من هذه الجولة عبر تراث الإنسانيـة الثقـافي في الصفحة السادسة بعد المائة فتدرك أن كل ما سبق لا تربطه بالمـوضوع أية صلة وأن « البحث » يبدأ في الفصل السادس .

وفعلا ، فإن اللهجة قد تغيّـرت : فبعد أن كانت لهجة نضال صارت غنائية تمجّد فضل العرب وتشير إلى سُبُـل تسرّب ثقافتهم إلى أوربا . ويظهر أن هذا الفصل هو لبّ الكتاب لأن الباب الثانـي ، رغم انقسامه إلى ستـة فصول ، فإنه لم يُضِفْ شيئا يذكر إلى هذا الفصل . ولمّا كان المؤلف والناشر قد أهملا إدراج فهرس للمواضيع فإن عرض عناوين الفصول في هذا التقديم يساعد على استعمال الكتاب :

فهذا الباب الثانـي إذن أقرب صلة بالموضوع وأكثر فوائد من الباب الأوّل رغم أنه جاء مفصّلا للعموميـات التـي عرضهـا المؤلف في الفصـل السادس من الباب الأوّل (ص 107—128) . إلاّ أن طريقة التأليف تنقص من

قيمة هذا المحتوى فزيادة على خلو الكتاب من الفهارس ، وزيادة على خروج ست ومائة صفحة عن موضوعه ، فإن القارىء يلاحظ عدم توازن في عرض المادّة ، من ذلك أن الفصل الثالث من الباب الثاني الذي جعله المؤلف لأغراض الشعر العربي المختلفة قد احتوى على خمس وعشرين صفحة (163—187) لدراسة الغزل في الأدب العربي وأثره في شعراء « بروفانس » (Provence) بينما احتوت الصفحات الثلاث الباقية على سائر أغراض الشعر العربي بمعدّل فقرة لكل من المديح والهجاء والفخر والوصف والحكم والأمثال والشعر السياسي والحنين إلى الأوطان . وتطغى نفس الظاهرة على الفصل الرابع الذي أطال فيه الكاتب الحديث عن القَصص البطولي والقَصص الغرامي ثم خصص صفحة واحدة قسمها بين المقامات وقصص الحيوانات وألف ليلة وليلة . وهذه الأنواع الثلاثة وحدها تحتاج إلى كتاب ...

ويرافق هذا العرضَ السريع أحكام خطيرة تحتاج إلى عديد الأدلة . والكاتب نفسه لا يرى ضرورة هذه الأدلة . فهو يثبت أن « الذي يمتحن الحركة الأدبية الأوربية منذ غزو العرب لجنوب فرنسا حتى عصر النهضة لا يحتاج إلى تنقيب وتدقيق ليدرك مدى تأثرها بتلك الأنواع الأدبية العربية التي ذكرناها . فسيبدو له في وضوح ما طرأ على الشعر والقصة في فرنسا من تغيّر مفاجىء على إثر تخطي الأدب العربي لجبال البرانس (Pyrénées) » (ص 144) .

وإذا كان المؤلف يشعر ببرد اليقين بدون حجج فنحن نحتاج إلى أدلة لإثبات بعض هذه الأحكام : « اعتادت (المرأة الأوربية) أن تضع تحت زنّارها قفصا من السلك لتبدو ممتلئة الردفين ، وقد حاولت بذلك أن تبدو في مثل قوام المرأة العربية التي صوّرها الشعراء في أبيات كثيرة » (ص 168) ! « وفي الوقت الذي تحاشت المرأة الأوربية فيه الاستحمام ظنا منها أن عدم العناية بنظافة جسدها دليل على عفتها ، كانت المرأة العربية تدرك أن النظافة

من الإيمان وتكثر من الإستحمام » (ص 168) (4) « وحتى الحجاب الذي عابه الأوربيون على الشرقيات قلّدته المرأة الغربية ، والنقاب الشفاف الذي تستعمله الأوربيات الأنيقات إلى اليوم دليل على ذلك » (ص 169) أما قصص كليلة ودمنة فقد « أجراها كاتبها العربي النشأة وإن كان فارسي الأصل على لسان فيلسوف هندي . ولكن أحدا لم يعرف لها أصلا إلاّ ذلك الأصل العربي . ومن المعروف أنها كانت مصدرا لقصص أوربية كثيرة كتبها الأوربيـون على غرارها » (ص 204) (5) . « وبـوكاشيو (Boccace) جار على قصص ألف ليلة وليلة فنقل بعضها نقلا في مجموعته المسمّاة « ديكاميرون » (Décaméron) (ص 192) (6) .

ويظهر التسرع أيضا في أخطاء تنمّ عن جهل بمبادىء مدرسية في تاريخ البلاد الإسلامية . قال المؤلف ص 230 : « لم يطق جميل فراق بثينة فتبعها إلى القاهرة وفوجىء بنبإ وفاتها » وقد فاته أن جميلا توفي سنة 82هـ/701م وأن القاهرة لم تؤسس الا سنة 359هـ/969م . وحتى إذا نزّهنا « الباحث » عن مثل هذه الأخطاء ونسبناها إلى القُصاص الذين تصرّفوا في قصة جميل وأضافوا إليها من الخيال الشعبي مواقف جديدة فلا يغتفر للمؤلف إهماله

(4) يجب أن نستعين لإثبات ذلك بما أكده الطرطوشي خلال تجواله في بلاد الافرنج بقوله : « ولكنك لن ترى أبدا أكثر منهم قذارة ! إنهم لا ينظفون أنفسهم ولا يستحمون إلا مرة أو مرتين في السنة بالماء البارد . وأما ثيابهم ، فإنهم لا يغسلونها بعد أن يرتدوها حتى تصبح خرقا بالية مهلهلة» ذكرت هذه الجملة في كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» لزيفريد هونكه (Z Hunke) تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي . بيروت 1964 . ص 54

(5) غاب عن الكاتب كل الأصول الهندية والفـارسية التي ذكرها شوفـان (V. Chauvin) في كتـابه «... « Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes » Liège 1892 Fasc. VI

(6) يجب أن نعود بأنفسنا إلى الكتابين لنعـرف أن القصة الخامسـة من الليلة الأولى والقصتين السادسة والسابعة من الليلة الثانية والقصة العاشرة من الليلة الثامنة والقصة الثامنة من الليلة العاشرة متأثرة بقصة السندباد في ألف ليلة وليلة وأن بقيـة قصص بوكاشيو (Boccace) متأثرة أيضا « بكليلة ودمنة » وكتاب « الأمثال » للميـداني ونوادر أبي حيان في « الامتاع والمؤانسة » René Khawam « Nouvelles arabes » Paris 1964 p. 16

هذا التوضيح . ومن جهة أخرى فإن القُصاص قد استغلوا حياة جميل في القرن الثانـي لا الرابع (7) .

وهناك نقص في طريقة البحث يتمثل في إهمال المراجع التـي استعان بها المؤلف . فهو يكتفـي بذكر إسم الباحث دون أن يشير إلى عنوان كتابه وإن ذكر الكتاب فهو يهمل الصفحات . مثال ذلك ما نجـده (صـ 114) « ويـرى المؤرخ « نيكل » أن ذلك الشاعر الأمير افتتح عهد ازدهار الشعر في بروفانس » فلا نعرف عنوان كتاب « نيكل » ولا الصفحة التـي ذكر فيها هذا العلم . وأما إذا كان الفصل في مجلة فإن الكاتب يكتفـي بقوله : « ونقد « بيـــديه » (Bédier) هذا الرأي في بحث نشره في « مجلة العالمين » (Revue des deux mondes) (صـ 119) أو « وفي أحد أعداد مجلة « النقد » (Critique) كتب « بول ميير .... (Paul Mayer) » (صـ 119) .

إذن فقد وجب على القارىء مطالعة كامل أعداد « مجلة العالمين » ومجلة « النقد » ليتأكّد من صحة هذه الشواهد .

ومن جهة أخرى فإن أسماء المؤلفين مكتوبة بالحروف العربية فقط . وهذا أمر لا يسهّل البحث عنها خاصة بالنسبة لأسماء المستشرقين الذين نشروا بحوثا قليلة . فمن هم (8) « ماريوس جويار » و« شيلودكو » و« بينييت دي سان مور » و« هـ.ج. تشيتور » وما هـي قصة « فلوار وبلانشفلور » وما هـي قصة « سكوايرتيل » لتشوسر ؟ فهذه طلاسم لا ينكشف سرّها إلاّ إذا كتبت بحروفها الأصلية .

والأخطر من كل هذا هو اعتماد المؤلف على أقوال الباحثين لتأكيد تأثير الأدب العربـي في الأدب الأوربـي وتهويل هذا التأثير بكلام طويـل

(7) دائرة المعارف الاسلامية – الطبعة الثانية . المجلد الثانـي ص 438

(8) نثبت هذه الأسماء كما وردت في الكتاب لإبراز ما في الاقتصار على كتابتها بالحروف العربيـة من إبهـــام

دون أن يرى موجبا لتحليل نصوص ومقابلتها ، فإننا لا نرى مواقف قصصية متشابهة بل تلميحا إلى أشكال غامضة لا تقنع القارىء بوجود أثر لها في آداب أجنبيـة .

ويمكن مع ذلك أن نستثني تحليل الكاتب لـ « قصة كليب » (التي لم يذكر مؤلفها) . فقد استغلها استغلالا حسنا ليثبت « أن جليلة (أخت كليب) أول شخصية روائية وقفت بين واجبين متعارضين ، واجب الزوجية وواجب الأخوة وكابدت هول مثل هذا الموقف .... » (ص 214) . وقد وجد المؤلف نفس الموقف في مسرحيتين بعنـوان « السيد » (El Cid) لـدي كاسترو (De Castro) الاسبـانـي وكرنـاي (Corneille) الفرنسـي . وهنا أيضا يكتفي محمد مفيد الشوبـاشي بذكر العنـوانين والمؤلفين دون أن يقارن بين المواقف والشخصيات ويصور خاصة كيف وصلت « قصة كليب » إلى اسبانيا ثم كيف بلغت فرنسا ومن ترجمها إلى اللاتينية أو الرومـانية (Roman) ومتى ترجمت إلى الفرنسية . كل هذه الأسئلة لا تهمّ مؤلف كتاب « رحلة الأدب العربي إلى أوربا » فإن « الرحلة » لا تهمه بقدر ما يهمه التصريح عديد المرّات أن الأدب العربي من أهمّ أصول نهضة الأدب الأوربي وأن الغرب مدين للشرق بعديد الفنون الشعرية والقصصية وإن كان ذلك على حساب التنقيص من أهمية الأدبين اليوناني واللاتيني .

فليس بهذه الطريقة نتمكّن من « تصويب اتجاه فكري اختلّ عندنا كلّ الاختلال إذ نظر أصحابه إلى تراثنا الأدبي نظرة استخفاف في حين أعجبوا بالأدب الأوربي إعجابا بلغ حدّ التقديس ، ونتج عن ذلك أن قطعوا أسباب صلتهم بالأدب العربي ، وارتضوا لأنفسهم التبعية الثقافية الغربية ، والوقوف عند محاكاتها ، وفقدوا كلّ ثقة بقومهم وبأنفسهم » (9) فما أيسر المقال وما أطول الطريق ....

(9) خاتمة الكتاب ص 260